

خصائص القرآن

- سلطان أحمد الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. غياث الإسلام الصديقي²

[لقد بين الله سبحانه وتعالى أسماء وصفاته بكل تفصيل من أجل الفهم الصحيح لذاته والتعرف على أداء حقه بصورة أفضل. وكذلك يوجد في القرآن والحديث ذكر كثير من أسماء النبي الخاتم محمد ﷺ وصفاته، ولا نستطيع أن نؤدي حقوقه بشكل أفضل إلا بعد الاطلاع على حقيقتها بكل تفاصيلها.

وهذا ينطبق تماماً على الكتاب المبارك الذي أنزل على النبي الخاتم (صلى الله عليه وسلم)، وهو القرآن الكريم، الذي ذكر في آياته كثيراً من أسمائه وصفاته. ولعل فكرة الكتابة بالتفصيل في هذا الموضوع قد راودت العلامة عبد الحميد الفراهي أولاً، الذي أراد تأليف رسالة في هذا الشأن بعنوان "أوصاف القرآن"، ولكنها لم تكتمل كغيرها من مؤلفاته. والحقيقة أنه كما لا يمكن أداء حقوق الله ورسوله على الوجه الأمثل دون معرفة حقيقية بأسمائهما وصفاتهما، كذلك لا يمكن التعرف الصحيح على حقوق كتاب الله إلا بالمعرفة الصحيحة لصفاته وخصائصه. لقد تطرقت هذه المقالة إلى بعض صفات القرآن الكريم وخصائصه. وفي ضوئها يمكن الشعور بالخلل في المفهوم السائد للحصول على البركة فقط من تلاوة القرآن الكريم. سلطان الإصلاحي]

ومن عجائب الزمان ومفارقاته العجيبة أنّ بعض الأذكاء الماكرين نجحوا في نشر الفهم

¹ سلطان أحمد الإصلاحي (2016م) محدث وفقه هندي له مؤلفات عديدة جلية منها: "التصوّر الإسلامي للدين"، "نظرية وحدة الأديان والإسلام"، "تصوّر الإسلام للمساواة"، "نظرية الإسلام للجنس"، "حياة الغرابة والإسلام" و"أوصاف الحياة المؤمنة".

² مدرّس ضيف، الكلية الطبية الآورفيدية واليونانية التابعة لجامعة دلهي، الهند

الخالط عن رجال الله يعني الأنبياء (عليهم السلام) الذين نشروا معرفة الإرادة الإلهية في العالم حسب ما في وسعهم، بأنهم "قادة روحانيون" بمعنى ضيق ومحدود للغاية. وقد اتبعتهم أغلبية الناس وآمنوا وصدقوا بقرارهم بكل سداجة. ولا تكتمل قائمة الأنبياء (عليهم السلام) دون وجود النبي الخاتم (صلى الله عليه وسلم). ونتيجة لذلك، إذا كان (صلى الله عليه وسلم) يُعتبر كسائر الأنبياء والرسول "قائدًا روحياً"، فالكتاب الذي أتى به، وهو النسخة النهائية من الهداية الربانية، قد يُعتبر أيضاً "كتاباً دينياً" بمفهوم خاص ومحدود، وربما كانت أقصى غايته ربط الإنسان بالله بالمعنى المحدود للكلمة، وإخبار الناس ببعض الأمور عن "الآخرة" بعيداً عن هذه الدنيا، وغرس بعض الأخلاق والصفات السامية فيهم. إلا أنه مع تحقيق الجوانب الأخلاقية والروحية للحياة على نطاق واسع وأسس متينة، يتناول أيضاً كموضوعه وهدفه، تنظيم الحياة من جوانبها المادية، وترتيبها وتنظيمها من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ولذا، عند وصف خصائصه، إلى جانب مكانته الروحية والمعنوية، وصف أيضاً تنظيم الحياة المادي وصفاته وخصائصه المتعلقة به بنفس الدقة، وبشرحه من عدة جوانب، لم يترك مجالاً للغموض أو الالتباس في فهمه.

الرسالة العالمية: أول ما يحتاج أن نلتفت إليه في هذا الصدد هو عمومية القرآن الكريم وشموليته. وبسببها يُخاطب القرآن البشرية جمعاء، مما يبدو منه أن خريطة تنظيم الحياة التي هي محل اهتمامه، والطريق الذي يدعو إليه البشرية لتحقيق الفوز والنجاح الشامل في الدنيا والآخرة، إلى جانب اتساع نطاق خطابه وعموميته، رسالته النابعة منه أيضاً تسم بمثل هذا الاتساع والشمول. فعندما تتجاوز رسالة هذا الكتاب حدود اللون والعرق واللغة والجغرافيا، يصبح من الضروري أن يكون منهج الحياة الذي يقدمه شاملاً وعالمياً. ولذلك، يُصرح بوضوح وجلاء أنه أنزل للعالمين جميعاً، وأن القرآن الكريم يرشد الناس ويوجههم في جميع شؤون الحياة دون أي تخصيص أو تقييد: "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ..." (سورة البقرة: 185)

"وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٦﴾". (سورة الإسراء)

وبهذا الكتاب، أرسل النبي محمد صلى الله عليه وسلم نذيراً للعالمين جميعاً:

"تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١٧﴾". (سورة الفرقان)

"... وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ...". (سورة الأنعام)

"إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ

عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٨﴾". (سورة الزمر)

اتباع القرآن كله: ومن يلقي نظرة سريعة على معاني القرآن الكريم لا يسعه إلا الاعتراف بأن هذا الكتاب لا يقتصر على مفهوم "الله والعبد" بالمعنى الشائع فحسب، بل هو نظام شامل للبشرية جمعاء ومنهج كامل للحياة. فهو ينصح الإنسان، من جهة، بالتوجه إلى الله كلياً، وتقوية علاقته معه قدر المستطاع، وإحياء ذكره في قلبه دائماً، والتجلي بالأخلاق الحميدة، وتجنب كل ما يعدّ من المحرمات وسفساف الأخلاق، ومن جهة أخرى، يُقدّم قواعد وإرشادات مفصلة لتنظيم حياة الإنسان وجوانبها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وفي هذا الكتاب لا تقتصر على دراسة موضوعات التوحيد والنبوة والآخرة، ولا تقتصر على نصائح العمل الصالح وتجنب المعاصي، بل تناول أيضاً بالتفصيل القوانين والأحكام المتعلقة بالزواج والطلاق، والميراث والأموال، والحدود والقصاص، والسلام والحرب، والحكم والسيادة. وقد أعلن الله تعالى منذ اليوم الأول أنّ منهج الحياة الكامل الذي أنزل إليكم في صورة هذا الكتاب- القرآن الكريم- يجب اتباعه من أوله إلى آخره دون أيّ تحليل أو تقسيم أو تقييد أو تخصيص. وهذا وحده الذي يمكنه تقريب الإنسان إلى رحمة الله تعالى:

"وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٩﴾". (سورة الأنعام)

"اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾".

(سورة الأعراف)

"وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ" (سورة الزمر)

وقد تعاقب التأكيد على النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) على ذلك بصفته ممثلاً الأمة:
"اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ" (سورة الأنعام)
ومع ذلك تم التوضيح أن هذا الطريق ليس سهلاً؛ ولن يتخلى الناس بسهولة عن أنماط حياتهم المفضلة لصالح منهج الحياة الذي يبينه القرآن الكريم ونظامه الشامل. لذلك، لا يمكن الثبات على هذا الطريق دون التمسك بحبل من الصبر والمثابرة:

"وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ" (سورة يونس)
"فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ..." (سورة الشورى: 15)

لا يمكن قضاء هذه المرحلة إلا بثقة بالغة بالله تعالى وتوكل كامل عليه. وقد وردت في سورة الأحزاب تعاليم تتعلق بالحياة الاجتماعية ولم تكن مقبولة بأية حال من الأحوال في البنية الاجتماعية السائدة آنذاك. ولذا، فقد تم التأكيد للنبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) في بدايتها على ما يلي:

"وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (سورة الأحزاب)
بِاللَّهِ وَكَيْلًا" (سورة الأحزاب)

شمولية خصائص القرآن: وإلى جانب بيان هذه الحقيقة الأساسية، قد فصل هذا الكتاب حيناً فحيناً خصائصه التي تُشير إلى اتساع إطار عمله في حياة الإنسان.

1. التعاليم العالمية: أول هذه التعاليم وأبرزها عالمية هذا الكتاب وشمولية تعاليمه، فقد وصف القرآن الكريم نفسه في عدة مواضع بأنه كتاب يكشف الحقائق يعني "كتاب مبين":

"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٥٦﴾". (سورة المائدة)

ومع ما أصاب الفكر الإسلامي في بعض المراحل المتأخرة من فتورٍ وتراجعٍ بفعل عوامل شتى، نشأ اتجاه يميل إلى توضيح دلالات هذه النصوص القرآنية، حتى غدا ذلك مألوفاً عند بعض المنتسبين إلى الأمة، فضلاً عن غيرهم، حتى في كثير من مراكز التفسير وحلقات التعليم، لا يتجاوز مفهوم القرآن الكريم بوصفه "كتاب مبين" كونه كتاباً يقدم أوامر وإرشادات تتعلق بحياة الإنسان الفردية، أو على أقصى تقدير، تتعلق بمشاكله الأخلاقية والاجتماعية. وفي القرون الأولى للإسلام، عندما كان الفكر الإسلامي متجدداً وحيوياً، كان فكر الأمة واضحاً تماماً في هذا الشأن، وكان يُعتبر نطاقه واسعاً يشمل جميع جوانب الحياة. فسّر ابن جرير معنى "كتاب مبين" في الآية على النحو التالي:

"وكتاب مبين" يعني كتاباً فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم من توحيد الله وحلاله وحرامه وشرائع دينه وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يبين للناس جميع ما بهم الحاجة من أمر دينهم ويوضح لهم حتى يعرفوا حقه من باطله".¹

وفي الآية التالية أيضاً تُقدّم صفة كالسابق لهذا الكتاب بأن الله تعالى يرشد به من يتبعون رضاه، إلى سبيل السلام، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور:

"يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾". (سورة المائدة)

ويُفهم هذا البيان القرآني أيضاً بمعنى محدود وضيق عموماً، يقصد به على الأكثر أن يعيش المرء حياة دينية في نطاق محدد، وأن يتقرب إلى الله ليستحق الجنة. ولكن مدلول "سُبُلَ السَّلَامِ" في الآية الكريمة عام ومطلق، وبالمقارنة مع المذاهب والأديان

¹ جامع البيان، 93-92/6.

الأخرى، يراد به الإسلام كمنهج حياة. وهذا يعني أن يجب على المرء أن يعصّ بالنواجذ على هذا الدين وشريعته الكاملة، وألا يرتكب أي انحراف طوال حياته عن هذا المنهج الإلهي الشامل الأخير الذي أنزله الله تعالى. وكذلك كلمة "الظلمات" تعني نظام الكفر والشرك برمته، بينما جميع ضلالات الفكر والعمل في الدنيا محصورة في هذين النطاقين (الكفر والشرك). أما هدي الصراط المستقيم فيعني أن يجي المرء نفسه من كل هذه الضلالات، وأن يتمسك بالإسلام طوال حياته. ومثل الآية السابقة، عمم المفسر الطبري هذه الآية الكريمة بنفس المعنى.

"(سبل السلام) سبل الله الذي شرعه لعباده ودعاهم إليه وبعث به رسله وهو الإسلام الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا به لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية (ويخرجهم من الظلمات إلى النور) يهدي الله بهذا الكتاب المبين من اتبع رضوان الله إلى سبل السلام وشرائع دينه (من الظلمات) يعني من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإسلام وضيائه (ويهديهم إلى طريق مستقيم) ويرشدهم ويسددهم إلى طريق مستقيم وهو دين الله القيم الذي لا اعوجاج فيه".¹

تبيّن هذه الآية ثلاث فوائد للقرآن الكريم بأنه كتاب نور، وكتاب مبين يُظهر الحقائق، فالفائدة الأولى أنّ الله تعالى يهدي به من يطلبون رضاه، إلى سبل السلام، والفائدة الثانية أنه يُخرجهم من الظلمات إلى النور بأمره ومشيتته، والفائدة الثالثة أنه يهديهم في حياتهم إلى الصراط المستقيم. وقد قدّم أحد كبار المفسرين في عصرنا، شرحاً وافياً وشاملاً للفائدة الأولى "الهداية إلى سبل السلام"، يحيط بحياة الإنسان كلّها، مع جميع جوانب أنشطته فيها، بالإضافة إلى النجاح في الآخرة:

"وقد ذكر الله لهذا النور ثلاث فوائد (الأولى) إنه يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، أي من اتبع منهم ما يرضيه تعالى بالإيمان بهذا النور يهديه- هداية دلالة

¹ المصدر نفسه، ص 93.

تصحيحاً العناية والإعانة- الطرق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل ما يرديه ويشقيه فيقوم في الدنيا بحقوق الله تعالى وحقوق نفسه الروحية والجسدية وحقوق الناس فيكون متمتعاً بالطيبات مجتنباً للخبائث، تقياً مخلصاً، صالحاً مصلحاً ويكون في الآخرة سعيداً منعماً جامعاً بين النعيم الحسي الجسدي والنعيم الروحي العقلي، وخلاصة هذه الفائدة أنه يتبع دنيا يجد فيه جميع الطرق المرسلة إلى ما تسلم به النفس من شقاء الدنيا والآخرة، لأنه دين السلام والإخلاص لله وعباده، دين المساواة والعدل والإحسان والفضل".¹

وهذا ما يقوله القرآن في موضع آخر بشيء من الإيجاز، وهو يبين غاية نزوله:

"... هُدًى لِلنَّاسِ وَيَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ...". (سورة البقرة: 185)

إنَّ الهداية والإرشاد الواضح للناس، هذا الوصف القرآني الذي يفهم عادةً بمعناه المحدود والضيق، يتضمن أيضاً هذه العمومية والشمولية، فتشمل دلالاتها ليس فقط الأمور العامة والمعروفة في الدين، بل أيضاً نظام الحدود والفرائض والمباحات والمحرمات.

"وأما قوله هُدًى لِلنَّاسِ فإنه يعني رشاداً للناس إلى سبيل الحق وقصد المنهج وأما قوله يَبَيِّنَاتٍ فإنه يعني واضحات من الهدى يعني من البيان الدال على حدود الله وفرائضه وحلاله وحرامه".²

وهذا يدل على أنَّ الصفات والخصائص العمومية التي يوصف بها القرآن الكريم نفسه بطريقة عامة وبسيطة في غير هذا الموضع فنطاقها واسع مثل ذلك.

"إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...". (سورة الإسراء)

"... إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٣٩﴾". (سورة يس)

¹ تفسير المنار، 305/6.

² جامع البيان، 82/2.

"... كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ..." (سورة إبراهيم: 1)
وعلى هذا المنوال، هناك آيات كثيرة، ونطاقها واسعٌ يمثل ذلك. ولا تقتصر هذه السمات والخصائص على الحياة الدينية الشائعة والمعروفة فحسب، بل هي منادي ثورة وتغيير في نظام الحياة برمته، وبغض النظر عن جميع أنماط الحياة الأخرى، تدعو إلى التمسك الراشح بالشرعة الإسلامية في جميع جوانب الحياة البشرية.

2. منهج الحياة الكامل: وإلى جانب ذلك، يصف القرآن الكريم إحدى صفاته بأنه منهج كامل للحياة. فهو كتابٌ يحتوي على تعليمات شاملة ومفصلة بشأن تنظيم حياة الإنسان وكل ما يتعلق بها من أمور وقضايا. وقد تمَّ إعلان ذلك للعالم البشري بأسلوب رائع على لسان النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم):

"... أَفَعَبَّرَ اللَّهُ أُمَّتِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا..." (سورة الأنعام)

وقد شرح ذلك صاحب المنار شرحاً وافياً، وهو يقول:

"أنزل إليكم الكتاب مفصلاً فيه كل ما يصح به الحكم- فإنزله مشتماً على الحكم التفصيلي للعقائد والشرائع وغيرها على لسان رجل منكم أي مثلكم هو أكبر دليل وأوضح آية على أنه من عند الله تعالى لا من عند غيره".¹

وفي مكان آخر أيضاً وصف القرآن نفسه بهذه الصفة:

"وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (سورة الأعراف)

وفي تفسيرها أيضاً قد وصف القرآن بأنه شامل لجميع قضايا الحياة الدنيا والآخرة:

"أي ولقد جئنا هؤلاء الناس بكتاب عظيم الشأن، كامل التبيان، وهو القرآن. فصلنا آياته تفصيلاً على علم منا بما يحتاج إليه المكلفون من العلم والعمل لتزكية أنفسهم،

¹ تفسير المنار، 10/8.

وتكميل فطرتهم، وسعادتهم في معاشهم ومعادهم".¹

ثم يوضح صاحب المنار هذا "التفصيل" أنه لا يعني جزئيات المسائل وفروعها، بل يراد به تفسير المسائل كلياً وتوضيحها الشامل، وفي نطاقه جاء شرح القرآن الكريم لحقائق الحياة شرحاً وافياً دون أي لبس أو غموض، ويقول:

"ففي القرآن تفصيل كل شيء نحتاج إليه في أمر ديننا فأسهب حيث ينبغي الإسهاب، وأوجز حيث ينبغي الإيجاز".²

يقدم هذا الكتاب تفصيل الجزئيات والفروع بشكل غير مباشر، وقد شرح العلامة الزمخشري ذلك بهذه الكلمات:

"فإن قلت كيف كان القرآن تبياناً لكل شيء (يشير إلى الآية "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً" (النحل: 89)، قلتُ المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصّاً على بعضها وإحالة على السنة حيث أمر فيه باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته وقيل "وما ينطق عن الهوى"، وحثاً على الإجماع في قوله "ويتبع غير سبيل المؤمنين"،³ وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته اتباع أصحابه والافتداء بآثارهم في قوله صلى الله عليه وسلم "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" وقد اجتهدوا وقاسوا وطأوا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى بيان الكتاب فمن ثمة كان تبياناً لكل شيء".⁴

"وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً" (النحل: 89)

¹ المصدر نفسه، ص 441.

² المصدر نفسه.

³ والآية الكاملة: "وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا" (سورة النساء)

⁴ الكشاف عن حقائق التنزيل، 1/647-648، كولكاتا، عام 1272هـ.

وأوضح المفسر خازن أيضاً هذه النكتة في تفسير الآية:

"تبيانا لكل شيء يعني من أمور الدين إما بالنص عليه أو بالإحالة على ما يوجب العلم من بيان النبي صلى الله عليه وسلم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم بين ما في القرآن من الأحكام والحدود والحلال والحرام وجميع المأمورات والمنهيات وإجماع الأمة فهو أيضاً أصل ومفتاح لعلوم الدين".¹

وجاء ذكر صفة القرآن الكريم نفسها في موضع من سورة يونس:

"وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠١﴾". (سورة يونس)

وقد فسرها الحافظ ابن كثير بهذه الكلمات:

"أي وبيّننا الأحكام والحلال والحرام بيانا كافيا شافيا حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين، كما تقدّم في حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه "فيه خبر ما قبلكم ونبا ما بعدكم وفصل ما بينكم" أي خبر عمّا سلف وعمّا يأتي، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه".²

وفي سورة النحل، قيل عن هذا الكتاب المبين:

"... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً...". (سورة النحل: 89)

وفي تفسيرها أيضاً قد وُصف القرآن بأنه يحيط بجميع قضايا الحياة الدنيوية، والمعيشية، والقيامة:

قال ابن مسعود "قد بين لنا في هذا القرآن كلّ علم وكلّ شيء، وقال مجاهد: كل حلال وحرام، وقول ابن مسعود أعم وأشمل فإنّ القرآن اشتمل على كل علم نافع من

¹ لباب التأويل في معاني التنزيل، 90/4، المطبعة العلمية، مصر.

² تفسير ابن كثير، 417/2.

خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكلّ حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ومعاشهم ومعادهم".¹

وقال صاحب الجلالين أيضاً نفس الشيء:

"(تبيّناً) بياناً (لكلّ شيء) يحتاج إليه الناس من أمر الشريعة".²

وفي مكان آخر وصفه بأنه وسيلة لتعليم الإرشادات الشاملة. وقد أنعم الله تعالى، برحمته، على الإنسان بعلم القرآن. وبعبارة أخرى، فقد قدّم تعليمات مفصلة في جميع الأمور والقضايا المتعلقة بالدين والدنيا:

"الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝". (سورة الرحمن)

وقد رحّح العلامة ابن جرير الطبري هذا التفسير للبيان وهو يقول: والصواب من القول في ذلك أن يقال معنى ذلك إنّ الله علّم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام والمعاش والمنطق وغير ذلك ممّا به الحاجة إليه لأنّ الله جلّ ثناؤه لم يخصّ بخبره ذلك أنه علّمه البيان بعضاً دون بعض بل عمّ فقال عليه البيان فهو كما عمّ جلّ ثناؤه.³

وإلى جانب ذلك، قد ذكر القرآن وصفه هذا أكثر من مرة فقال تعالى:

"الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝". (سورة هود)

"كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝". (سورة فصلت)

وفي تفسيرها أيضاً لم يأت التركيز على القصص والخطب فحسب، بل يشمل أيضاً

¹ المصدر نفسه، ص 582.

² تفسير الجلالين، طبعة جديدة، ص 358.

³ ابن جرير، 61/27.

"والفرقان يعني والفصل بين الحق والباطل".¹

"ومفرقاً بين الحق والباطل والحلال والحرام".²

"وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغي والرشاد".³

وقد بدأت سورة الفرقان بهذه الآية: "تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ... (سورة الفرقان: 1)"
وتمّ إيضاح نفس المعنى هنا أيضاً:

ولهذا سمّاه ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام.⁴

وهذه المنزلة للقرآن الكريم توضحها آيات سورة الإسراء التالية: "وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾".

إنّ الذين يتمسكون بهذا الكتاب ويعملون خشية الله منهاجاً لحياتهم، فيمنحهم الله تعالى بفيضه قوة التمييز والحكم، والتي تمكنهم من التمييز بين الحق والباطل، والصدق والباطل في كلّ تحولات الحياة وخطواتها، ويصبح الطريق الذي يرشدهم إليه الله تعالى في جميع شؤونهم ومشاكلهم واضحاً ومشرقاً تماماً، كما أنهم سيحققون بركاته النجاح الأبدي أيضاً في الآخرة.

"يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَفَقَّأُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٨١﴾". (سورة الأنفال)

¹ جامع البيان، 82/2.

² تفسير ابن كثير، 216/1.

³ المصدر نفسه، ص 344.

⁴ المصدر نفسه، 623/2.

وكلمة "الفرقان" تشمل الدنيا والآخرة حسب ما قاله المفسر مجاهد: "فرقانا قال مخرجا في الدنيا والآخرة".¹ وقد وسع المفسر محمد بن إسحق هذا المفهوم مزيداً وقال: "فرقانا أي فصلاً بين الحق والباطل".²

وفي شرح ذلك قال الحافظ ابن كثير قولاً يعجبنا: "فإن من اتقى الله بفعله وأوامره، وترك زواجه، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه... وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل كقوله تعالى: "يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَعَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (سورة الحديد).³

وإلى جانب الآخرة، هذا هو النور الذي يناله المؤمنون في هذه الدنيا، والذي جاء ذكره في سورة الأنعام. أما الذين يتيهون في ظلمات الكفر والشرك، فهم محرومون منه تماماً. وإلى جانب قبول هداية هذا الكتاب الأخير في شؤون الحياة العامة، وردت بعض التوجيهات المهمة في هذا الشأن، كما جاء ذكر بعض التأكيدات الأساسية، ثم قال سبحانه: "أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (سورة الأنعام).

1. مرجع الخلافات: كما ذكرت في السابق إحدى صفات كتاب الله، يذكر القرآن الكريم صفة أخرى له بأنه المصدر الوحيد للاختلافات والتناقضات المتواجدة في حياة الإنسان. وحسب الحال دائماً، يواجه العالم اليوم أيضاً وضعا فكرياً وعملياً، يمكننا وصفه بكلمة واحدة. فهو عرضة للاختلافات في مجالات فكرية وعملية لا حصر لها، بحيث يدعي كل فريق من فرق القضية أنه يمتلك الطريق إلى الحق

¹ جامع البيان، 138/9.

² المصدر نفسه، ص 139.

³ تفسير ابن كثير، 302/2.

والصواب، فالمبادئ التي وضعها لحسم القرار في شؤون الحياة، ومسارات العمل التي اقترحتها لنفسه في ضوء هذه المبادئ، لا يوجد فكر أفضل من ذلك، ولا يمكن اقتراح مسار عمل أفضل منه للحياة.

في خضم هذه التيارات الفكرية والعملية المتضاربة، يدعي القرآن الكريم أنه وحده يملك معيار الصواب والحق، وأن ادعاءات جميع الأوساط الفكرية الأخرى باطلة ولا أساس لها. فإما أن يكون عمل العقل قاصراً، أو أن يكون وجه الهداية الإلهية قد شوّه بأيدي البشر بحيث يصعب التعرف عليه بصورة واضحة، ويستحيل تحديد أي جزء منه يعكس الإرادة الإلهية وأي جزء منه تمثيلاً لأهوائهم ونزواتهم وجشعهم الدنيوي. والآن في حياة الإنسان، لا يحتل هذا المقام إلا النسخة النهائية للهداية الإلهية وهو القرآن الكريم.

"تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ اَعْمٰلَهُمْ فَهُوَ وَٰلِيُّهُمْ اَلْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ ﴿١٣﴾ وَمَا اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ اَلْكِتٰبَ اِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اَخْتَلَفُوْا فِيْهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ ﴿١٤﴾". (سورة النحل)

إنّ هذه المرجعية لكاتب الله هي تشمل جميع جوانب الحياة، وتحيط مكاتبه هذه بجميع شؤون الحياة دون أي قيد أو تحديد. وبذلك يصرح المفسر ابن كثير: "ثم قال تعالى لرسوله إنه إنما أنزل عليك الكتاب لتبين للناس الذي يختلفون فيه فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه".¹

وهذا هو ما قاله القرآن في مكان آخر بالكلمات التالية حيث أمر بالرجوع إلى منزله دون هذا الكتاب: "وَمَا اَخْتَلَفْتُمْ فِيْهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ اِلَى اللّٰهِ ذٰلِكُمْ اَللّٰهُ رَبِّيْ عَلَيِّهِ تَوَكَّلْتُ وَاِلَيْهِ اُنِيْبٌ ﴿١٥﴾". (سورة الشورى)

وهذه الآية أيضاً حملها العلامة الموصوف على العموم المذكور: (وَمَا اَخْتَلَفْتُمْ فِيْهِ مِنْ شَيْءٍ

¹ المصدر نفسه، 574/2.

تزداد أهمية مرجعية القرآن الكريم عندما نلقي نظرة على موقفه من بداية الخلافات والتناقضات في حياة الإنسان واستمراريتها عبر التاريخ. فوفقاً للقرآن كانت البشرية منذ بدايتها تسير على نهج واحد في الفكر والعمل. ثم نشأت الخلافات في الفكر والرأي بين الناس لأسباب وعوامل مختلفة، فاختار كل فرد مساراً مختلفاً في الحياة. فهدفاً لإزالة هذه الخلافات وإعادة أصحابها إلى الصراط المستقيم، أرسل الله تعالى أنبياءه في كل زمان ومكان، وأنزل عليهم الكتب لتكتمل بها هذه الرسالة الإلهية. وفي نهاية سلسلة الأنبياء عبر التاريخ، مخاطبان رئيسان للنبي الخاتم (صلى الله عليه وسلم) وهما اليهود والنصارى من أهل الكتاب، كانا تجسيداً نهائياً لهذه الخلافات والتناقضات، فجاء شفاؤهم في صورة القرآن الكريم ليُخرجهم من دوامة الضلال، ويهديهم إلى جادة الحق فكراً وعملاً في الدنيا، وليقودهم إلى الفوز والفلاح في الآخرة، وقد ارتبط به مصيرهم ونجاة البشرية جمعاء حتى يوم القيامة. والآن صار هذا الكتاب إلى الأبد، المرجع الأخير والحكم النهائي لكل ما قد يقع من خلافات وتناقضات في حياة الإنسان فكراً وعملاً، فبالإعراض عنه لا يتوقع الوصول إلى طريق الحق والصلاح:

"كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٠﴾". (سورة البقرة)

فهذا هو الطريق الذي يدلّ عليه القرآن الكريم حتى يوم القيامة، وبالسلوك عليه يستطيع الإنسان أن يجد سبيلاً لتجنب الخلافات الفكرية والعملية في حياته:

"وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣١﴾". (سورة الأنعام)

2. حلّ القضايا: وإلى جانب ذلك، قد أوضح القرآن الكريم سمته البارزة بأنه ليس

مجرد كتاب "خطب وإرشادات" في إطار محدود، بل هو حكم الله الأخير بين النوع البشري إلى يوم القيامة، وتعين أن كل الشؤون والمشاكل التي تحدث فيما بين الناس بالإضافة إلى جميع نزاعاتهم وخلافاتهم، لا تُفصل الآن إلا في ضوئه وحسب أمره. فُنسخت جميع الكتب السماوية الأخرى بعد نزول هذه النسخة النهائية من الهداية الربانية. وكشأن سائر خصائص تلك الكتب، صفة كون الحكم أيضًا بين النوع البشري، وجدارته لذلك، قد تركزت في هذا الكتاب الكريم بشكل كامل، كما تجلّت فيه العدالة الإلهية بصورتها الكاملة، وجاءت فيه خلاصة جميع الكتب السماوية السابقة. فهذا الكتاب وحده لا يزال إلى يوم القيامة مقياسًا نهائيًا للتحريفات البشرية في الكتب السابقة بالإضافة إلى إيضاح الفرق بين الحق والباطل فيها.

وبعد أن جاء كتاب الله متصفًا بهذه الصفات والميزات، إن تتخذ كلمة بشرية غير مؤمنة بالله، قائمة بالإفراط والتفريط في ذاته وصفاته، نهجًا آخر للحياة، إعراضًا عن نهج هذا الكتاب، وتطلب الأحكام لشؤونها ومشاكلها من محكمة أخرى، فكل ذلك ليس إلا مرآة لاتباع أهوائها والتقليد الأعمى لرغباتها وشهواتها. وكذلك، بعد نزول هذا الكتاب، إن تتخذ جماعة تدعي الإيمان بالتوحيد والنبوة، موقفًا مخالفًا لهذا الكتاب، وتقصد إصدار الأحكام في شؤونها وقضاياها من الكتب المنسوخة، إنما هو انعكاس للواقع نفسه، يعني كل هؤلاء قد انحرفوا عن سبيل الحق، وأصبحوا أسرى لأهوائهم وميوهمهم. وقد خوطب الرسول الخاتم (صلى الله عليه وسلم) بأن موقف هؤلاء الناس في شؤون حياتهم مهما كان، بعد نزول هذه النسخة النهائية للحق والصدق، فعليك أن تحكم في قضايا الناس وفقًا لها.

إنّ هذا هو النظام الأخير للحياة الذي أنزله الله تعالى، ولا مجال لأي انحراف عنه في جميع شؤون الحياة حتى يوم القيامة. وعند نزول القرآن، كان حال أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنهم كانوا يتوجهون إلى النبي الخاتم (صلى الله عليه وسلم) في الحالات التي يأملون فيها الحصول على حكم لصالحهم، بينما كانوا في سائر القضايا

والشؤون الأخرى يزعمون مرجعية كتبهم. وقد وصف القرآن هذه الازدواجية في عملهم بأنها خداع لهوى النفس، وأكد النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم):

"وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾". (سورة المائدة) وأردف قائلاً:

"وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾". (سورة المائدة)

وبين أن ترك محكمة القرآن ومحاولة اللجوء إلى اليهودية والمسيحية، يعد بمثابة المثل في خدمة الجاهلية بدلاً من الإسلام. ومحكمة الله هي الأفضل، والتي لا يمثلها اليوم إلا هذا القرآن:

"أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾". (سورة المائدة)

وفي موضع آخر، أوضح القرآن منزلته القانونية بأنه الوسيلة الوحيدة للفصل بين الناس حتى يوم القيامة:

"إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿٢١﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٢﴾". (سورة النساء)

ولقد أخذ صاحب الجلالين مفهوم "بما أراك الله" أنه هو القرآن:

"(لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِبِينَ) أعلمك الله فيه".¹

¹ المصدر نفسه، ص 121.

ولا يقتصر الأمر على القرآن فحسب، بل يُنسب هذا الوصف نفسه إلى الصحف السماوية السابقة أيضاً في إطار خاص. فالتوراة التي تعني لغوياً القانون والشريعة،¹ يوضح القرآن مكانتها:

"إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ..." (سورة المائدة: 44)

وبعد ذلك، قد عُرض نموذج لمنزلتها الحاكمة، وقبله الإسلام كما هو، مع التأكيد على أن أي شخص يخرف عن هذا القرار الإلهي يكون مذنباً بارتكاب ظلم عظيم:

"وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالتَّقْوَى وَالْعَيْنَ بِالْغَيْرِ وَالْأَنْفَ بِالْأَذْنِ وَالْأُذُنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (سورة المائدة)

وعلى هذا المنوال، وإن كان الإنجيل يحتوي معظمه على الحكمة والموعظة، لم يكن خالياً من الأحكام والقوانين، ولذا، تم حث أتباعه على اتخاذ القرار بشأن قضاياهم وشؤونهم وفقاً له:

"وَلِيَحْكَمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" (سورة المائدة)

وقد ذكر القرآن سابقاً هذه السمة من سمات التوراة، وكان من عادة اليهود أن يتوجهوا إلى محكمة الرسول الخاتم (صلى الله عليه وسلم) أملاً في تجنب أحكام التوراة وطلب التنازلات لأنفسهم. وطبقاً لهذه الخلفية، وردت الآية:

"وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا

¹ تفسير المنار، 155/3، وأيضاً، 398/6.

أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾. (سورة المائدة)

وسمة التوراة بأنها وسيلة للهداية والنور، ذُكرت سابقاً بكلمة "هدى ونور"، وقد ذكر القرآن نفس الميزة للإنجيل أيضاً:

"وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَعَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ۖ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾". (سورة المائدة)

وفي كلا المكانين، يكمن معنى الهداية والنور في كون هذين الكتابين جامعاً للأحكام: ("هدى ونور") هدى من الضلالة، وبيان للأحكام".¹

وقد أوضح مؤلف "المنار" نفس المفهوم بمزيد من الوضوح:

"إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...". (سورة المائدة: 44) أي إنا نحن نزلنا التوراة على موسى، مشتملة على هدى في العقائد والأحكام، خرج به بنو إسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم، وعلى نور أبصروا به طريق الاستقلال في أمر دينهم ودنياهم".²

أما القرآن فقد صرح بهذه الميزة لنفسه أول يومه:

"رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿١٠٠﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿١٠١﴾". (سورة البينة)

3. إقامة العدل والإنصاف: وآخر الصفات البارزة للقرآن الكريم هي أنه جاء إلى هذا العالم ليقم العدل والإنصاف بطريقة صريحة. وقد وصفه الله تعالى بأنه ميزان العدل والإنصاف إلى آخر يوم من العالم:

"اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۖ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾". (سورة الشورى)

وفي الآية الكريمة تعني كلمة "الميزان" العدل والإنصاف. وقد أورد العلامة ابن جرير

¹ تفسير الجلالين، طبعة جديدة، ص 144-145.

² تفسير المنار، 317/6.

الطبري هذا التفسير: "يقول تعالى: (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ) يعني القرآن بالحق والميزان، يقول وأنزل الميزان، وهو العدل ليقضي بين الناس بالإنصاف ويحكم فيهم بحكم الله الذي أمر به في كتابه".¹

وَيُدْخِلُ الْحَافِظُ ابْنَ كَثِيرٍ فِي شَرْحِ "الْكَتَابِ" سَائِرَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ مَعَ الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ يَشْرَحُ "الميزان": "(أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه، (وَالْمِيزَانَ) وهو العدل والإنصاف".²

وعند العلامة الشيخ أمين أحسن الإصلاحي³ مفهوم "الكتاب" هو القرآن، و"الميزان" بيانه، ومفهومه ميزان العدل.⁴ وقد وردت هذه الفكرة بأسلوب مؤثر جداً في سورة الرحمن، وهي تبدأ بذكر نعمة عظيمة من الله في صورة "تعليم القرآن"، وينتهي تمهيداً بخطاب يحث على إقامة الميزان في العالم، والالتزام الصارم بتطبيقه العملي:

"الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝ يَحْسَبَانِ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝". (سورة الرحمن)

سورة الرحمن عبارة عن بيان النعم الإلهية، وقد بدأت بأول تجلٍ لصفة الرحمة الإلهية الكاملة في صورة "تعليم القرآن". ونظراً لعظمته وأهميته، تم تقديم بيانه حتى على خالق الإنسان. ثم جاء ذكر أول مخاطبٍ لهذه "الرحمة" وهو الإنسان. وهناك حاجة للفهم والإدراك والعقل والشعور للاستفادة والانتفاع بهذه النعمة العظيمة من الله تعالى. ولذا، بعد ذلك ذكرت "قوة الكلام" (البيان) التي تمثل هذه القدرات وتجسدها. ثم وجهت

¹ جامع البيان، 13/25.

² تفسير ابن كثير، 4/110.

³ العلامة الشيخ أمين أحسن الإصلاحي (1904-1997م) من كبار المفسرين للقرآن الكريم في الهند.

⁴ تدبر قرآن، ط2، 6/157.

الأنظار إلى نعم الله تعالى الأخرى القائمة في الكون، وعلى رأسها الشمس والقمر، اللذان يجريان في مسار محدد بسرعة مقدره، ومن خلال ذلك، يتحقق تحديد الأيام والتواريخ، وهي حاجة اجتماعية وتمدنية عظيمة إلى جانب فوائدهما الأخرى. ويثبت القمر والشمس بأداء وظيفتهما هذه، خضوعهما لله عزّ وجلّ وطاعتها المعنوية له. وكذلك نجوم السماء وأشجار الأرض، من خلال خدمتها لمصلحة الإنسان بشق الطرق، والحركة المعينة للنجوم وإرشادها للإنسان في الطريق، وقضاء الأشجار احتياجات التمدن الإنساني المتنوعة، وظلالها بالاتجاه المعين، تُثبت سجودها التكويني لله. وعلى هذا المنوال، ارتفاع السماء ومثانتها، وخصائصها الأخرى، هي ضمانات لبقاء الإنسان على الأرض.

وعقب وصف هذه النعم العظيمة من الله عزّ وجلّ في الكون، وهذه الاهتمامات المادية لبقاء الإنسان، تم لفت الانتباه إلى الاهتمام الأعظم منها، وبه بقاء الإنسان على الأرض بمعناه الحقيقي، وهو ميزان العدل والإنصاف (وَأَلْسَمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) فبدونه، سيصبح الكون حتماً مصاباً بالتدمير والتخرب أخلاقياً وروحياً، كأنّ الحماية الإلهية والنظام الإلهي قد أزيلا منه، وهذا هو المعيار الصريح للعدل والإنصاف الذي يدعو إليه القرآن الكريم،¹ والذي بين مقتضياته الشاملة بتفصيل كامل في صفحاته (كما لُفت الانتباه إليه في بداية السورة). إنّ أول مظاهر إرساء هذا العدل والإنصاف في حياة الإنسان هو التزام الناس بالنهج القويم في معاملاتهم المتبادلة، وفي تعامل الوزن والكيل. وهذا هو المعيار الوحيد لفحص سلوك العدل والإنصاف في أي مجتمع بشري، مما يظهر بوضوح مدى إرساء هذه القيم السامية في مختلف جوانب حياته. فإذا عجز المجتمع عن توفير العدل والإنصاف في هذا المجال الخاص، سيتجلى عجزه في مجالات الحياة الأخرى بصورة أكمل.² وقد أوضح الحافظ ابن كثير هذا الأمر إيضاحاً بالغاً في الشرح الموجز التالي:

"(وَأَلْسَمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) يعني العدل كما قال تعالى: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ

¹ المصدر نفسه، 130/7.

² المصدر نفسه.

وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ". (سورة الحديد: 25) وهكذا قال ههنا: "أَلَّا تَنْظُرُوا فِي الْمِيزَانِ ۝٨". (سورة الرحمن) أي خلق السموات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل، ولهذا قال تعالى: "وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٥". (سورة الرحمن) أي لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط كما قال تعالى: "وَرِزْقُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ". (سورة الإسراء: 35).¹

وفي سورة الحديد، تم وصف العدل والإنصاف كأهمّ صفة لجميع الكتب السماوية إلى جانب القرآن الكريم. فقد أنزل الله تعالى مع جميع رسله "العدل والإنصاف" يعني (الميزان) إلى جانب الكتاب.² والمثال العملي المبدئي لذلك يتمثل في المكييل والموازن التي من خلالها يتعامل الناس فيما بينهم بالعدل والإنصاف، ويضمنون ذلك في جميع شؤون ومعاملات حياتهم الأخرى.³ والغاية من إنزال "الميزان" هي أن يُقيم الناس العدل في جميع أمور الحياة دون مساومة، حتى يُستأصل الظلم والجور من جميع مناحي الحياة، ويسود العدل في كل مكان وعلى جميع المستويات:

"لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ...". (سورة الحديد: 25)

إنّ القرآن الكريم شديد الحرص على إرساء العدل والإنصاف في حياة الإنسان حتى أنه لا يكتفي بمجرد الوعظ والحث والتذكير والنصيحة، بل إذا أصرت قوى الشر على طريق الظلم والجور، وأصرت على نشر هذا الظلم والدمار في العالم، فالإسلام يدعو إلى سحقها بالكفاح المسلح، ويجب أن تُداس عظمتها بقوة السيف حتى يُستأصل الظلم والجور من العالم، وتصبح الأرض كلها شاهدة للعدل والإنصاف. ولهذا

¹ ابن كثير، 270/4.

² ابن كثير، 314/4، وتفسير الجلالين، طبعة جديدة، ص 723.

³ ابن جرير، 132/27.

السبب أنزل الله تعالى الحديد مع الكتاب والميزان، وفيه عدة فوائد للإنسان والتمدن بالإضافة إلى قوة الحرب. فبين القرآن أنّ هذا ليس بأمر تافه، بل هو من أهم مقاصد بعثة الأنبياء. وهكذا، يمتحن الله تعالى المؤمنين الصادقين بخلق فرص مناسبة في حياة الرسل ليرى من الذين يؤمنون بالغيب، ويسعدون في الدنيا والآخرة بنصرة رسول الله في هذه الحرب المقدسة، ومن هم الآخرون الذين، يتخلفهم في هذا المجال، يلحقون الذل والعار بأنفسهم في الدنيا والآخرة:

"وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾". (سورة الحديد)

إذا كان النبي الخاتم (صلّى الله عليه وسلّم) هو الحلقة الأخيرة في سلسلة النبوة، وحياته هي ذروة الكمال في إتمام الرسالة النبوية، فإن الكتاب الذي أتى به هو أيضاً آخر الكتب السماوية، وقد احتوى في جوهره على غرس العدل والإنصاف في حياة الإنسان، والقضاء على الظلم والجور. وإذا كان للعدل والإنصاف أن يسودا في الدنيا حتى يوم القيامة، فهو لا يمكن إلا بالكتاب الأخير الذي جاء به سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، وقد تجلّى فيه موضوع العدل والإنصاف بصورة أتمّ وأكمل. إنه الكنز الأخير والأبدي للحق والصدق، والذي لا يتحقق إرساء هذه القيم السامية في حياة الإنسان أبداً إلا به:

"وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾". (سورة الأنعام)

ومصدق هذه الآية بشكل نهائي هو القرآن الحكيم نفسه، وهي وصف لصفحاته السامية، بينما ترتبط الآية السابقة بذلك: "أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبَتَيْ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾". (سورة الأنعام)

إنّ ما أتى به القرآن الكريم من تعاليم شاملة بشأن تنظيم حياة الإنسان ونظامها واستقرارها، بالإضافة إلى النظام الشامل للحياة، الذي يُقدّمه القرآن ليفوز الإنسان في سائر المجالات، تتمحور جميعها حول تنمية العدل والإنصاف وإرسائهما واستقرارهما. هذا هو المحور الأساسي الذي يدور حوله النظام الكامل لتعاليمه الجماعية.¹

¹ مع الشكر لمجلة "علوم القرآن" النصف سنوية، يوليو-ديسمبر، 1985م، ص 28-68